كتاب التصوير الفنى فى القرآن

التصوير الفنى فى القرآن
تأليف الأستاذ / سيد قطب

قرأت كتابك ((التصوير الفنى فى القرآن)) بعناية وشغف , فوجدت فيه فائدتين كبيرتين:

أولاهما للقارئ : خصوصاً القارئ الذى لم يسعده الحظ بالتفقه فى علوم القرآن , والغوص إلى أسرار بلاغته . بل حتى هذا القارئ الممتاز لاشك واجد فى كتابك نوراً جديداً ولذة طريفة , ذلك أن كتاباً خالداً كالقرآن لا يعطى كل أسراره الجماليه لجيل من الاجيال مهما كان حظه من الذوق وقدرة البيان , فالجيل الحاضر عمله فى هذا الشان , كما سيكون للاجيال القادمة عملها . والمهم أنك وفقت لأن تكون لسان جيلنا الحاضر فى أداء هذا الواجب الجليل الجميل معاً , مستعيناً بهذه المقاييس الفنيه التى يألفها المعاصرون ويحبونها ويسرون فى وادى الفن على هداها ونورها . إن عصرنا

- من الناحية الجمالية – عصر الموسيقى والتصوير والقصة , وهأنت ذا تبين لنا بقوة وإلهام أن كتابنا المحبوب هو الموسيقى والتصوير والقصة فى أسمى ما ترقى إليه من الوحى والإبداع . ألم نقرأ القرآن ؟ بلى . وحفظنا – فى زمن سعيد مضى – ما تيسر من سوره وآياته , وكان – ومايزال – له فى قلوبنا عقيدة وفى وجداننا سحر , بيد أنه كان ذاك السحر الغامض المغلق , تحسه الحواس , ويهتز له الضمير , دون أن يدركه العقل أو يبلغه التذوق , كان كالنغمة المطربة التى لا يدرى السامع لماذا ولا كيف أطربته , فجاء كتابك كالمرشد للقارئ والمستمع العربى من جيلنا , ويدله على مواطن الحسن ومطاوى الجمال , ويجلى له أسرار السحر ومفاتن الإبداع . كان القرآن فى القلب فصار ملء القلب والعين والأذن والعقل جميعاً . ولقد قلت بعد نظر طويل وتدبر ((التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى , والحالة النفسية , وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور . وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة , فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد , وإذا النموذج الانسانى شاخص حى , وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ...)) ومضيت تستشهد لكل حالة بالأمثال مفسراً شارحاً موضحاً ,

ولم تقتنع بذلك فتوثبت للبحث عن القواعد التى يقوم عليها هذا التصوير المعجز من التخييـل الحسى والتجسيم فى فيض من الامثال والشواهد . ثم لم تقنع بما فتح الله عليك من سحر هـذا الفيض الإلهى فقلت ((حينما نقول إن التصوير هو القاعدة الأساسية فى تعبير القـرآن وإن التخيل والتجسيم هما الظاهرتان البارزتان فى هذا التصوير لانكون قد بلغنا المدى فـى بيـان الخصائص القرآنيه عامة ولا خصائص التصوير القرآنى خاصة ... هنالك التناسق الذى يبلغ الذروة فى تصوير القرآن.)) فكان هذا الفصل الذى بلغت به أنت أيضاً الذروة فـى النقـد والذوق والفهم . كنت أود لو أستشهد ببعض ما جاء فى كتابك من النقض التطبيقـى للآيـات الكريمة , ولكن تضيق عن ذلك كلمتى الموجزة ويأباه ذوقى الذى يأبى المفاضلة بين آى الذكر على أى وجه من الوجوه . ومهما يكن من أمر فينبغى أن أقرر هنا أنه فى فصلى ((التناسق الفنى)) و ((القصة فى القرآن)) قد بارك القرآن مجهودك فرفعك إلى مرتقى يتعـذر أن يبلغه ناقد بغير بركتة القرآن ..!

أما أخرى الفائدتين : فهى لك أنت ! لأن الكتاب فى جملته إعلان عن مواهبك كناقـد . إنـك تستطيع أن تعبر أجمل التعبير عن أثر النص فى نفسك ,ولا تقف عند هذا فتجاوزه إلى بيـان مواضع الجمال فى النص نفسه وما يحفل به من موسيقى وتـصوير وحيـاة , ثـم تـستنطق الموسيقى أنغامها وضروبها , وتستخبر الصورة عن ألوانهـا وظلالهـا , وتـستأدى الحيـاة حرارتها وحركتها . ولا تقنع بهذا كله ! فيقرن ذهنك بين النص والنص , حتى تظفـر وراء الظواهر بوحدة , وخلف الآيات بطريقة عامة , تجعل من الكتاب شخصاً حيا ذا غاية واضحة , وسياسة بارعة , وخطة موضوعة , تهدف جميعاً إلى الإعجاز الفنى فتناله عـن جـدارة . فهذا ذوق جميل , وتذوق عسير وفكر ذو نفحة فلسفية ...

والآن اسمح لى أن أوجه إليك سؤالاً , وأن أسوق ملاحظة :

أما السؤال : فإنك تحدثت عن التصوير والتخييل والتجسيم والتنسيق الفنى , وكل أولئك روح الشعر ولبابه قبل أى شئ آخر , أفلم يخطر لك أن تحدد نوع كلام القرآن على ضـوء بحثـك هذا؟

وأما الملاحظة فعن الفصل الذى خصصته للنماذج الإنسانية , فقد وجدت فيما أستشهدت به من آيات ما يعبر عن طبائع بشرية وسجايا نفسية لا نماذج إنسانية , فالنموذج الإنسانى بمعناه العلمى شئ أشمل من هذا , وهو قد يحوى الكثير من هذه الطبائع كما قد يحوى غيرها , المهم أنه يعرضها على نحو خاص يتفق ومزاجه الأساسى . والنماذج الإنسانية محدودة معروفة- على إختلاف تقسيم العلماء النفس لها – أما الطبائع فلا حصر لها , فلعلك قصدت الطبائع لا النماذج .